قضية حرية التشهير بصفتها آخر الحريات

دلال البزري

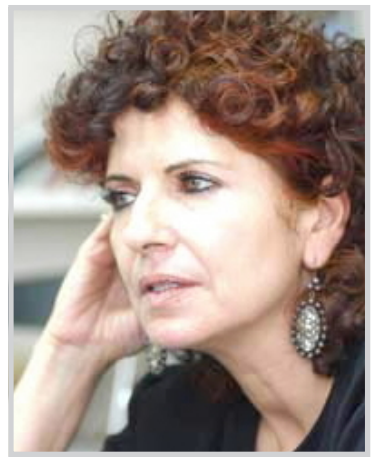

دلال البزري

قد تكون حرية التشهير بأمانة الخصم في الرأي وبكرامته وبذمّته وبوطنيته، ومن موقع المحصن برأي أهله.... أقوى الحريات في عالمنا العربي. زادت هذه الحرية مؤخراً، بعدما اشتدّ الانقسام السياسي والفكري بين (مقاومين) يريدون فتح كل الجبهات على (المشروع الاميركي الصهيوني)، وبين آخرين لا يرون في هذه (الفتوحات) غير خراب بخراب.

(أشرف الناس! اكرم الناس! انظف الناس!).

هكذا يرى (المانعون) انفسهم. وبهذا الوصف لهم مطلق الحرية الاخلاقية في ان يمرّغوا خصومهم من غير الموافقين على اجندتهم في وحول الخساسة والعمالة والاستزلام والتبعية والتخاذل و(القبض) والسرقة والتعامي عن الحقائق التي لا يراها غير (الوطنيين الشرفاء).

هذا لا يعني أن صفوف (عديمي المقاومة) المستهدفين بالتجريح هم ملائكة الحجة الموضوعية الهادئة. فهم ايضا لهم قاموسهم التشهيري. وبينهم، فوق ذلك، من لا يرد على الاختلاف الفكري (أو حتى على اختلاف في وجهة النظر) الا بالتشهير الشخصي وبالتشكيك في الذمة والكرامة. لكن الفرق ان (اشرف الناس) المقاومين اقوى منهم جماهيرياً وإعلامياً وثقافياً. اكثر منهم تنعما بالتالي بحرية التشهير. مع هذا فالجميع سواسية في هذا العيب الخلقي الفكري- الاخلاقي.

هل من حاجة الى امثلة عن هذه الحرية المقدسة؟ آخر الحريات؟

مثل واحد يكفي. ربما بسبب الضجة الاعلامية التي اثارها صاحب المثل:

افتتاحية الدكتور سماح ادريس الاخيرة في مجلة (الآداب) اللبنانية. عنوانها (نقد الوعي (النقدي): كردستان العراق نموذجا). وفيه (تشريح) لحالة كردستان العراقية، من الدور الاسرائيلي فيها، الى حقوق الانسان والمرأة، الى تدمير كردستان... الخ. وفي هذا التشريح شيء من الحقيقة. لكن لغته الكارهة واليقينية أضعفت موضوعيته؛ وكذلك رؤيته المؤطرة بالهيكلية التنظيرية (الممانعة)، المعجبة بخشبيتها والمصرّة عليها... والتي لا ترى مسؤولية إلا في (المشروع الاميركي الصهيوني).

نتابع: كل هذا الوضع (المزْري) لكردستان العراق هو مسؤولية مثقف معروف ونشيط، هو فخري كريم. فالافتتاحية منكبّة عليه في بدايتها حيث (تنقد) تعامي المهرجان الضخم الذي ينظمه سنوياً عن هذه الحقائق التي تكشفها حول كردستان؛ وتتهم منظّمه بإخفاء حقائق كردستان عن مئات من المثقفين المدعوين الى هذا المهرجان. وهذا ايضا ليس مشكلة عويصة.

المشكلة الحقيقية ان الافتتاحية تنتهي بفقرة هي بيت القصيد: اذ تدعو القراء الى (تصفح الانترنت) او (الالتقاء بأي شيوعي عراقي نظيف) ليعلموا (أين آلت اموال الحزب الشيوعي العراقي وأموال الفقراء والطلاب وعائلات الشهداء، اموال مجلة النهج ودار المدى، ليعلموا صلات بعض (الشيوعيين) القدامى-الجدد بمخابرات صدام نفسه في الستينيات والسبعينيات، فضلا عن المخابرات العربية والاميركية والبريطانية...). (الآداب. ص٩٦).

ردة الفعل جاءت سريعة: دعوى رفعها فخري كريم ضد سماح ادريس و(دار الآداب)؛ وفي احدى فقرات الدعوى: (للسيد ادريس حقه باتخاذ الموقف السياسي الذي يريد (...) لكن ليس من حقه ان يتجاوز حدود النقد المباح (...) الى سلوك الكراهية والاهانة وتعمد المساس بكرامة فخري كريم (...) والتشهير به وتحقيره من خلال اتهامه بارتكاب جرائم مخلّة بشرفه واخلاقه (...) افتراءات لا اساس لها من الصحة).

اما الرد على الرد فيكون بـ(ميثاق شرف) يُدعى فيه المثقفون الى التوقيع، وعنوانه (ميثاق شرف بين أنصار الكلمة الحرة). ميثاق يستند الى الدستور اللبناني حول الحرية والديموقراطية، ويحرم اللجوء الى المحاكم (إنطلاقا من الاختلاف في الرأي او المعلومة او الدليل)! هكذا تتحول قضية النيل من الذمة المالية او الاخلاقية الى (فكر لا يجابه الا بالفكر)؛ أو الى (حقائق لا تدحضها الا حقائق). أو ايضا (ليس من اجل مجلة الآداب فقط، بل من اجل حرية كل مواطن عربي)! (بحسب ميثاق الشرف). هل من حاجة الى المزيد؟ حرية كل مواطن عربي يحميها توقيع عدد من المثقفين على هذا الميثاق دفاعاً عن (افتتاحية جريئة لاقت اعجابا من الكثيرين لا لجرأتها (هل تحتاج هكذا افتتاحية الى كل هذه الجرأة؟) في هذا الزمن الصعب فحسب، بل لوضوحها...) الخ.

ولا ينسى (ميثاق الشرف) في حملة التوقيع هذه أن يذكر بجَميل مجلة إدريس، أو بالاحرى سلطته على الموقعين المفترضين، بعدما أُخذ على الخصم استقواؤه بسلطة رئيس جمهورية بلاده، اذ يقول (كم من شاعر وروائي وقاص وناقد -ما بين المحيط والخليج- صعد على صفحات الآداب....).

هذا والملف كله مع الميثاق واسماء الموقعين والدعوى القضائية المقامة ضد (الآداب)، تجدها جميعاً في صدارة صحيفة يومية مقروءة ومعروفة بمقاومتها للمشاريع الاميركية والصهيونية في المنطقة. وعنوان هذا الملف: (تضامنا مع (الآداب) وسماح ادريس)؛ وهذا فقط لقياس مدى الحملة الاعلامية ونشاطها في وجه (العميل... غير النظيف)، فخري كريم. وقد وقعت على هذا الميثاق شخصيات سياسية وثقافية بعضها نافذ جدا... وينتمي جلها الى المعسكر (المقاوم) نفسه.

الآن: قد يكون فخري كريم قد ربح القضية ضد (الآداب)، وقد يكون خسرها. بل اكثر من ذلك: قد تكون ذمة فخري كريم نظيفة وقد لا تكون. لكن المشكلة ليست هنا: ليست في الشخص نفسه، بل في النهج التشهيري الحر المعتمد بين الخصوم السياسيين او الفكريين.

والسؤال الذي يفرضه هذا النهج هو: اذا افترضنا أننا بتنا معسكرين كبيرين: بين (مقاومين) وبين (محذرين من خراب هكذا مقاومة)، بين معسكرين يرى كل واحد فيه في المعسكر الآخر انه (شر مطلق)، ولا يرى في نفسه الا (خيرا مطلقا)... فهل هذا تصور واقعي؟ (واقعي) بمعنى مطابق للواقع...؟ ان يكون كل المقاومين خيرين نظفاء شرفاء، وغير المقاومين اشراراً مشبوهين عملاء ملوثين؟ وهل يعقل العكس ايضا؟

ميثاق التضامن مع سماح ادريس ينتمي الى مدرسة التشهير التي نعاني منها كلنا. اذا كان هناك من ميثاق فبين متخاصمين، ليس بين متحابين. وهذا هو الامتحان الحقيقي ضد عيب التشهير الذي لا ينال من المشهر بهم فحسب، بل من ممارسيه ايضاً.

عن الحياة اللندنية
٢٠٠٨/٢/١٠

العيب عندما يكون بديلاً عراقياً!

عبد الستار ناصر

عبد الستار ناصر

اذا لم يكن من اسم على أيما مقالة منشورة، فهذا يعني دون ريب ان ما ستكتبه جواباً على كاتبها يشبه مناجاة الفراغ في صحراء شاسعة.

وليس من عادتي الكلام مع (الفراغ) حتى اذا كان كلامه من ذهب وعقيق وعسل، وكنت تمنيت على السيد الفراغ في (البديل العراقي) ان يذكر اسمه حتى اعرف النوع والصنف والجسد الذي كتب عني والذي أسهب واطنب في ذكر عيوبي ومثالبي وأخطائي متفاخراً (أن لا احد يعرفها غيره) مع انني قلتُ عن نفسي وعلى الصفحة الأولى من كتابي (شمبارة الميمونة) عام ١٩٩٣ بأنني أنا الخطأ الذي لا يتكرر، وهذا يكفي ان يفهم الأستاذ (الفراغ) بأن كل ما سيقوله عني من منهل البذاءات لا يوازي ما قلته شخصياً عن نفسي!

لكن، هناك الكثير مما اغفله السيد (الفراغ) في الرد (غير المهذب) المنشور نهار السبت الثاني من شباط والذي أغدق فيه من الشتائم (ما يتناقض تماماً مع أي احساس بشري) وراح يكيل اقذر الصفات على الاستاذ فخري كريم وعلى كاتب السطور حتى وصل به الحال الى استخدام (الأحذية) وغيرها من مخازي البديل التي يربأ حتى (....) عن كتابتها!!

فيما يتعلق بي، كان يمكنني ان اكون عوناً للسيد الفراغ أساعده في ذكر بقية المثالب والموبقات والجرائم التي لا يعرف عنها أي شيء، إذ جاء في مقالته (المحترمة) على معلومات عامة يعرفها القاصي والداني، كما قرأها عني ويعرف اسرارها الأول والتالي، فأنا في نهاية المشهد رجل معروف في عموم الوطن العربي ولست محض (فراغ) بلا اسم وبلا هوية اكتب هنا وهناك بحسب حالة السوق السياسي، حتى اذا كان المكان هو ما انتهيت اليه اليوم كان الله في عونك حتى تمتلئ.

❖❖

لا أدري اذا كانت مقالتي في(المدى) ستأتي بأمطار غزيرة من الاموال كما يقول السيد الفراغ، هذا ما لم يحدث، وليس عيباً ان أتسلم عليها استحقاقي فيما بعد، كلنا نكتب حتى نقول ما نفكر فيه وليس غريباً ان نكتب اكثر من سوانا حتى يستخف بنا الاستاذ فراغ فهذه هي مهنتي التي لا اعرف غيرها، وهي لا تأتي عفواً ولا سهواً من فراغ.

اما عن شجاعتي وبطولاتي (الكاذبة) فانا لم استثمر حتى ايام اعتقالي انفرادياً في الغرف الجوانية الرطبة التي رماني اليها نظام البعث ولمدة عام اطول من احزاني جميعها منذ ولادتي حتى هذه الساعة، ولو حدث الامر مع أي شخص آخر لما اقعد الدنيا حتى بعد قيامها، بينما تركتُ الامر فوراً وعدت الى حياتي وكتاباتي، فأنا في نهاية الصورة وفي آخر المطاف لست سوى (واحد) بين ملايين الضحايا، والحمد لله انني خرجت حياً من بين انيابهم مع ان الخروج حيا انذاك من المعجزات.

ليس في قاموس حياتي ايما بطولات (مشتراة) فهي محض حياة راحت وتسربت بين أسوأ السنين التي عاشها العراق، ليس من احد (محسود) في ذاك الزمان غير كلاب الصيد وكتاب التقارير وباعة الضمائر.

اما عن الاستاذ الشاعر سعدي يوسف فأنا لا أتهمه بالجبن والمذلة او الخوف (حتى من ظله) فقد عشنا معا في مكان واحد (المركز الفولكلوري) في منتصف السبعينيات، ويعرف هو نفسه مدى صراحتي عندما احكي اليوم عن شخصيته المرعوبة التي لم تتحرر من الخوف حتى ليلة سفره (نهائياً) خارج العراق، وله الف حق في ذلك، فقد كان السيف البعثي المسلول فوق الرؤوس كلها، وكان رأس سعدي يوسف في اول الصفوف، لكن ذلك (عفوا) لا يعطيه صفة الشجاع ابداً.

بعد خروجه (بطلا) من المطحنة البعثية، صار حاكماً على من خرجوا بعده من المطحنة نفسها، هو الذي يقرر (براءة) هذا الشاعر او جريمة ذاك الأديب، وقد امعن في فرض عقوباته على الابرياء حتى صارت المحكمة التي هو (القاضي) الاول والاخير فيها، لا تختلف بشيء عن محكمة (الثورة) سيئة الصيت، فهل كان شجاعاً عندما كرر اسلوب محاكم التفتيش وهو (الشاعر) الاخضر الاخير في زمن الجفاف؟!.

السيد (الفراغ) يسخر من أسلوبي في الكتابة، ويسأل عن معنى (المنصف الذي يشبه التسلية) ثم عن معنى (البحث عن فراغ مملوء بالطعنات وأظنه الآن بات يفهم المعنى، ذلك أن الأسلوب هو الرجل، بينما الفراغ لا أسلوب ولا رجولة، وربما كان هو نفسه (البديل) عن أمنيات بهذا المعنى، لكنها أمنيات عسيرة المنال لا تتحقق لفراغ (وكم يؤسفني الردّ على هذا النوع من الاشياء التي تشبه البشر).

❖❖❖

جاء الأستاذ (فراغ) على ذكر فخري كريم عشرات المرات، في العنوان أولاً (رداح القادسية يهرع لنجدة فخري كريم)، ثم في بقية الصفحات الأربع، ولم أعثر على كلمة واحدة او صفة واحدة في مكانها الصحيح، فقد كانت البغضاء هي التي (تشتغل) بين الفوارز والسطور، إذ يقول الأخ (البديل) إن مقالتي (البائسة) جاءت (بأوامر) من فخري كريم، وكذلك الحال مع مقالة الأستاذ الفاضل كاظم حبيب، وحتماً سيقال الأمر نفسه عن (كاظم الحجاج وفؤاد التكرلي) وذلك يعطي انطباعاً للقراء عن (امبراطورية) و (شاهنشاهية) أخطبوطية الأطراف يديرها ويحركها فخري كريم شرقاً وشمالاً وغرباً كما يشاء، ولو كان الرجل بهذه الخطورة العجائبية الغرائبية السحرية التي تحدث عنها السيد الفراغ، لما كان عسيراً عليه ان (يشتري) ولاءه، وهو ليس سوى فراغ ينطّ هنا وهناك بلا اسم وبلا ملامح متستّراً او مختفياً وراء أي بديل مهما كان شكله وهويته ونوع دمه.

نعم، لقد كشفنا عن (سطحية وبدائية مرعبة) حين كتبنا عن (ثقافتكم) رفيعة المستوى وحين تحرشنا (بسياستكم) الحكيمة في تصريف الأمور، لعنة الله (علينا) فما كنا ندري ان الجهل (نور) وأن العلم ظلام كما أثبت الأستاذ (فراغ) بالدليل القاطع.

ولا أنكر (هنا) مدى سعادتي عندما كتب (الفراغ) عن جهلي بالسياسة وكم أنا بعيد عنها بعد السماء عن الأرض كما يقول: فهذا شرف عظيم يمنحه الفراغ (سهواً) لمن ترك السياسة (لكم) حتى تشهدوا بأنفسكم ما انتهينا إليه من عسف وفوضى وخسائر وجثث مرمية في الطرقات، يشرّفني ان اكون خارج هذا البيت حتى مماتي، فما رأينا فيه غير الويلات والكوارث والأرامل وسراديب الموت، بيت السياسة الذي يضم الغيلان والفراغات بديلاً عراقياً عن الحرية والنقاء والحوار النظيف.

أنا منذورٌ للكتابة والابداع والقصة القصيرة والرواية منذ طفولتي، أما السياسة (ودكاكينها) فقد أبقيتها لكم، بديلاً تفخرون به وتنابزون الناس بئس الاسم الفسوق، حيث لا أحد يؤمن بأحد، ولا أحد يريد الخير لأحد، وكل الفراغات بما لديهم فرحون.

الفزع من الفضاء العراقي الجديد

سماح إدريس أنموذجاً

ناجح المعموري

قرأت مقالة الأستاذ سماح إدريس "نقد الوعي النقدي" كردستان العراق أنموذجاً وأثارت لدي عددا من الملاحظات، سأحاول التركيز بحواري وإياه منذ ابتداء المقال حيث اتهم (الصحافة الثقافية والإعلام شبه الثقافي هو أن يتصدى مثقفون عرب، وباسم (الوعي النقدي الحديث للبنى التقليدية المتخلفة، والغيبية الغربية، والسلطات القومية المستبدة، والظلامية والواقعية الفلسطينية، واليسار الديكتاتوري) وهذا كلام مهم، اتصف بالشجاعة والجرأة، لكنه ظل عاماً ومثلما سيتأكد لنا لاحقاً . مثل هذا الكلام لا يقوله إلا الأستاذ سماح إدريس، لكنه سيكون أكثر شجاعة لو تفضل وقال لنا من هو المقصود بالغيبية العربية، والمستبدة، والظلامية الإسلامية، واليسار الديكتاتوري، حتى نكون على بينة ونجد لنا نصيراً فيما نتفق وإياه عليه، لكن كلامه خبطة جمعت الأنظمة العربية كلها، البعيدة عنه والقريبة، وما دام الأستاذ سماح يرفع صوته عالياً ضد مثقفي ومفكري الحداثة العربية التي تراجعت منذ نهاية الستينيات، عليه أن يكون أكثر وضوحاً منهم ويقول ما يتوجب على المختلف قوله وهو المراقب الأمين للحداثة العربية؟ والحقيقة التي تتبادر للذهن، هي القدرة الثقافية والمراقبة الدقيقة للأستاذ سماح من خلاله مشروع الآداب الثقافي ومعرفته لتفاصيل التاريخ الثقافي في الوطن العربي أن نقرأ له كلاماً غير الذي نشره وتفضل به موزعاً الاتهامات والتشكيك، نريد وما زلنا نطالبه برجاء أن يدحض بالمحاورة والمعلومة تراجع أدونيس حداثوياً كذلك بالنسبة لشاكر النابلسي وعلي حرب، كما استغرب منه الأخذ على الأستاذ النابلسي خروجه عن التيار القومي ومن بعد الماركسي، إنها ظاهرة إيجابية، كثيراً ما تواجهنا في مجالات الثقافة والفكر والمعرفة ولا ضرورة للتذكير بعديد من الأسماء البارزة في الثقافة العربية، وسماح إدريس على دراية بذلك، لأن مجلة الآداب شاهد على التحولات الثقافية والمغايرة وهذا دليل عافية وصواب بالنسبة للمثقف.

أنا واثق بقدرة أدونيس وثقافته العالية في قراءة فكر الشيخ محمد عبد الوهاب لأنه ذو خبرة في التعامل مع التراث، ولا أريد الإشارة لتحققاته. كما أني هنا لا أتبنى أفكار الشيخ محمد عبد الوهاب. ولم يكشف لنا الأستاذ سماح دلائله عن استجابات أدونيس للاستشراق والتفكير بآليات خطابه وقال عنه (نقرأ أدونيس ينتقد الهياكل (الثابتة) والأصوليات العربية انتقاداً استشراقياً مليئاً بالعموميات والأحادية) وما قاله عن أدونيس وقع هو فيه، حيث عمومياته التي لم تسعفها بعض الوثائق الضعيفة المنشورة هنا وهناك، وافقدته العمومية قوة الحكمة والموضوعية، وظل خاضعاً لأهداف شخصية ضيقة، ومنطلقاً من مصالح واضحة. أما كلامه عن عمومية الإستشراق، فهذا كلام غير دقيق، وعودة الى ما كتبه ادوارد سعيد وبيل أكروفت وكتابات ما بعد الكولونيالية والنقد الثقافي سنجد بأن كثيراً من الملاحظات تدحض كلام سماح إدريس هذا بالإضافة الى كتابات عربية متحفظة على ادوارد سعيد الكاشف عن حقائق استشراقية اتسمت بالأحادية مثلما قال سماح إدريس، لكنها لم تكن متسمة بالعموميات بشكل مطلق.

هل صحيح استعارة خطابات المؤسسات السياسية العربية في توزيع الأدوار وتحديد المواقع الخاصة بالأدباء والمثقفين العرب ونختار لهم ما نريد مثل أعلى وأدنى، ويتطرف في رفض الآخر مباشرة ومن غير دلائل، وكأنه يمثل سلطة ثقافية (وبالمثل، وأن على مستوى فكري أدنى بكثير، نجد شاكر النابلسي...) والمستغرب عدم توفر القدرة على قبول قرارات المثقفين وقناعاتهم، ولذا برز صوته في نفي المختلف والمتباين، ولم تعد مثل هذه المواقف مقبولة، لأن الثقافات تعددية وتعيش تجاذبات كثيرة كما قال ادوارد سعيد.

وينتهي الابتداء سريعاً ، لأنه اختصر تاريخ عدد من المثقفين بعجالة وأنا واثق من أنه غير قادر على التناظر المباشر معهم ولكن سنركز على جوهر المشكلة (القومية) التي يعاني منها الأستاذ سماح وهي العراق والحال في كردستان وضياع الخصائص في بلد سيظل ساعياً من أجل عناصره التاريخية ووظائفه الحضارية التي نعرفها نحن أكثر من غيرنا، ونعمل الآن وسنظل من أجلها لأننا ندرك أهمية الدور الثقافي / الفني العراقي.

إن العقدة المتحكمة بكثير من المثقفين والكتاب الذين عافهم تيارهم القومي هي كوردستان وما هي عليه الآن، ونتمنى عليهم الاستماع لنا وعدم الاعتماد على من يعادي التجربة العراقية الجديدة وفضاء الحرية الذي لم تعرفه الجغرافيا العربية الواسعة، مع كل ما رافقها من أخطاء نعرفها ونتوقع استمرارها، لكن الآتي لنا وسيظل المستقبل بانتظارها، ولأننا على الدرب الصحيح، وما حصل وما زال مستمراً هو قربان الديمقراطية والحياة الجديدة. جوهر كل هذا الكلام الصاخب والإتهامي، هو إقليم كوردستان ومؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون، حيث لا تستطيع بقايا التيار القومي استيعاب الصعود الكوردي ومشاركته بفاعلية ضمن مشاهد الاختلاف والاتفاق السياسي. ولم ارتفع صوت الأستاذ سماح إدريس الآن ضد الأكراد ولم يهمس في زمن صدام حسين بشيء عن المكان الآمن مع كل صراعاته الدموية بين أحزابه وحركاته السياسية، وتتضح صورة القومي المتعالي وهو ينظر لقومية ثانية وهو تكريس تجربتها السياسية منذ ١٩٩١، أين كان الأستاذ سماح منذ تلك الفترة الطويلة التي سلم فيها صدام حسين الشمال بالطريقة التي نعرف وتحقق المكان الآمن حق لهم وحماية من استبدادات السمكة الكبيرة التي كثيراً ما التهمت من كان أصغر منها.

وما يثير في المقال هو صوت التشكيك وضعف المصداقية بالذي عاشه العراق في زمن صدام حسين (وما مصداقية نقاد صدام حسين ومقابره الجماعية (وهي مريعة مثله)) لقد وضع نهاية رأيه بين قوسين تحفظاً وهذا أكثر قسوة من شتائمه، لأنه ما زال غير مصدق بالمجازر والمقابر الجماعية بوصفها حقيقة أجمع عليها العالم وتحفظ عليها التيار القومي؟

أعلن الأستاذ سماح إدريس باعتباره مثقفاً بارزاً عن موقفه القومي ضد العراق وكأنه حاز على صفة المتحدث نيابة عن السياسيين، من أجل إيصال رسالتهم للأدباء والمثقفين العراقيين. ونحن أكثر معرفة بدورنا والذي نمارسه الآن. ويقف الإنكسار القومي والانهيار المريع لمشاريعه منذ الحرب العالمية الثانية ليطلق صوتاً مبحوحاً ضد قومية صغيرة تحررت من التعسف التاريخي ويتناسى هزائم المشروع القومي وانتكاساته العديدة، ابتداء بالتعبئات الناصرية وما آلت إليه أحلامه، ومن بعدها تعبئات صدام حسين مع إيران وغزو واحتلال الكويت ولو استطاع الفكر القومي أن يتخلص من سياق التعبئة في الثقافة / السياسة / التربية لما وصل الى هذه النتائج المأساوية، وأعني بذلك ما وصلت إليه الشعوب العربية. والتعبئة هي التي أيقظت الحلم وسرعت آليات الحنين له ويقف وراء الحملات العدوانية ضد العراق، الذي يعرف وحده حجم خساراته سابقاً والآن.

يمثل سقوط صدام حسين انهياراً لا ينكر للمشروع القومي وباباً لدخول الحداثة ليس لأقليم كوردستان، وإنما للعراق كله وما يحصل الآن وربما سيستمر أكثر هو مجال أو مجالات للفلترة، ويكفي وجود ناظم للحياة وضابط للعلاقات السياسية مع احتكام لأصوات المواطنين وهذا وحده مثير لمخاوف البلدان العربية التي لم تفرط بالرؤساء الذين التصقوا بكراسيهم. هل هذا سبب فزع سماح إدريس، مثلما واضح في مقالته؟ فزع حاول التستر عليه معتمداً على وثائق واهية أو إدعاءات!! وهي كثيرة وليس صعباً الحصول على كثير منها، مشبعة بالكراهية للكورد وللعراقيين وما يثيره الوضع في العراق من خوف ومشاعر عدم الاطمئنان من هذه التجربة وانعكاساتها المستقبلية بسبب التعدد القومي والتنوع الطائفي في كثير من دول الجوار. إنه المتحدث بلسانها وصار صوتاً لمن لا صوت له، وعرف كيفية التعبير عن رضاه لما هو قائم بالعراق عبر الانتحاريين والسيارات المفخخة، إنها وسيلته وعدم قبوله بإملاءات أمريكا عليهم. ونأمل أن يعرف الأستاذ سماح إدريس موقف الأدباء والمثقفين والفنانين من الوجود الأمريكي والذي لا يمثل إلا احتلالاً للعراق، ونحن ندرك هذا جيداً، ولسنا بحاجة لمن يذكرنا بالوطن وما يعنيه، بقدر حاجتنا الإنسانية بتكافل وتضامن من أجل إيقاف أنهر الدماء الزاحفة إلينا من الخارج، حتى يتمكن العراقيون من إنجاز ما طالبوا به لتسريع انسحاب قوات الاحتلال، بعد زوال الأسباب وتوفر الشروط الموضوعية لذلك. وأعرف بأن الأستاذ سماح يعرف جيداً بأن أدباء الداخل وبعض الحركات السياسية في الخارج، لم تكن مقتنعة بغزو العراق والإطاحة بالنظام السابق بالطريقة التي نعرفها جميعاً وتحقق كوارث وطنية كبيرة، مثل حل الجيش وأجهزة الأمن واجتثاث البعث وبودي أن أقول بصوت عال أن الحركة الثقافية في العراق أول من استنكر انهيار الدولة ومؤسساتها، ذلك الانهيار المريع ومنهم من تحدث بصوت مسموع عن خطورة اجتثاث الفكر، وأحتفظ بوثائق مؤكدة على ذلك. وكان الأدباء والمثقفون منذ الأيام الأولى للاحتلال وحتى الآن يؤكدون في فعالياتهم الثقافية والفكرية، وفي لقاءاتهم مع أقطاب الحكومة والدولة على سيادة العراق ومغادرة قوات الاحتلال.

نطمح أيضاً إلى أن يسأل الأستاذ سماح إدريس عن الذي جاء بالقوات الأمريكية والتحالف الواسع إلى العراق واحتلاله؟ على الرغم من إنه ألمح كاشفاً لحقيقة معروفة لنا " بأن النظام السابق هو الذي دمر كردستان العراق خلال العقدين الأخيرين وأضاف: " وتنشيطاً لذاكرتهم ربما نورد إن أجزاء كبيرة من كردستان دمرت خلال الحرب العراقية –الإيرانية ١٩٨٠. ١٩٨٨ التي بدأها صدام حسين فعلاً، ولكن بتشجيع وتحريض وتمويل وتسبيح وتأييد من قبل الولايات المتحدة الأمريكية والأنظمة الخليجية وغير الخليجية الموالية لها " هذا كلام موضوعي لكنه أغفل واحدة من مجازر التاريخ المعاصر وهي الموت الجماعي في حلبجة.

❖❖❖

لم يتحدث الأستاذ سماح إدريس عن مهرجانات المدى الثلاثة في دمشق لأنها كانت مقبولة خارج العراق. ولحظة عودتها إلى الوطن أثارت كثيراً من ردود الأفعال، ويبدو بأن السبب المباشر لإثارة هذه المشاعر الفزعة، هو مهرجان المدى، ويتضح هذا من تاريخ كتابة المقال في ٢٠٠٧/٥/٢٩، أي بعد انتهاء فعاليات المهرجان. كما أدرك الأستاذ سماح إدريس بأن المدى تحولت من دار للإعلام والثقافة إلى مؤسسة متنوعة العناصر، ابتداءً بالاجتماعي / الثقافي / الفني / والفكري والمعرفي ولم تعد مكتفية بدورها للنشر والتوزيع، بل اتسعت وتعمقت وحققت ما لم تستطع عليه وزارات ومؤسسات من حيث عدد الدعوات ومستوى المدعوين، وتنوعها، وأيضاً بما أثارته من حوار وجدل خلال أسبوع كامل. وبإمكاننا حصر الصراع بمجاله الثقافي وبرامجه المتنوعة، التي أفضت بالمدى إلى أن تكون حاضنة ثقافية / وفنية للعراقيين، وتأتي هذه الحاضنة بعد أسابيع من سقوط النظام. والسؤال الذي يتبادر للذهن ماذا لو عرف الأستاذ سماح إدريس بالأنشطة الأخرى والأدوار التي نهضت بها المدى؟ سأتحدث عن ذلك كي يطلع على ما يعرفه العراقيون جيداً، أقامت المدى عدداً من نهاراتها الثقافية / الفنية / الاجتماعية احتفاء بالمبدعين واستذكاراً للآخرين، وقدمت دعماً لا بأس به للمتضررين من دمار شارع المتنبي وأقامت فيه نهاراً لها، تحدياً للقتلة والإرهابيين وتأكيداً على حيوية طائر الفينيق (شارع المتنبي) الذي سيعاود انبعاثه ثانية. وللمدى صندوق للتنمية الثقافية قدم دعماً متحركاً وثابتاً لأعداد كثيرة جداً، وأعرف بأنها سخية مع عدد من العوائل الاجتماعية وذات التاريخ الوطني، ومدت يدها لكل من هو بحاجة إلى دعم للعلاج في الداخل أو الخارج. وأرجو أن لا يضيق صدر الأستاذ سماح إدريس من هذه المعلومات التي أعرف،لأني قريب من المؤسسة ومطلع على قليل مما هو حاصل وما زال مستمراً ولابد من التذكير بأنها أولت اهتماماً بالبراعم المبدعة، وتبنت المشاريع الثقافية نشراً وتعريفاً مع مكافآت مجزية، هذا كله وغيره كثير، هو نشاط هذه المؤسسة ورئيسها الأستاذ فخري كريم وليس " ناشرها " وواضح أن سماح إدريس تناسى كل برامجها ووضع يده على العمود الفقري في مشروعها في الحاضر والمستقبل. هذا المشروع / الحلم جاء إلينا مع فضاء الحرية الجديد والذي سيكون عراقياً وبظل.

وستواجه الروح العراقية بعد عودتها مخاضات صعبة وقيصريات مخيفة، ولكن لا تعطلها وستفضي إلى يقظة الوعي الوطني وتناميه بين العراقيين وحصراً قاعدة الثقافة والفنون، ولن ننكر الصعود الثيوقراطي كواحد من الظواهر الصاعدة بعد التغيير، ووفر لها الدستور فرصاً واسعة. هذه اليقظة الجديدة / المغايرة لما هو قائم في البلدان العربية من حيث الاختلافات، والتنوع / والتباين، ويكفي اليقظة العراقية استمرارها الحتمي، محمية بناظم دستوري يحقق لها انسجامات وطنية أكثر وضوحاً في المستقبل.

أتمنى أن لا يظل الأستاذ سماح إدريس فزعاً من المدى، ولا ضرورة لذلك فالاختلافات واسعة بين الآداب والمدى، لأن المدى لم تكتف بوصفها دار نشر وإنما مؤسسة ذات مشروع وطني ومستقبلي. والغريب في المقال هو صوت الاتهام والتشكيك، ليس بالمدى وإنما بكل ما يحصل من فعاليات، تكاد تكون يومية في العاصمة والمحافظات " إن التغطية الصحفية والإعلامية لمهرجان المدى أسقطت فرصة مهمة أمام القراء لمعرفة واقع الحال في كردستان العراق، وواقع " المشرفين " على الوضع الثقافي في العراق ككل " لا يريد سماح إدريس الاقتناع والقبول بوجود ثقافة / وفني، وهذا أمر يصعب عليه تصديقه، بسبب سقوط النظام السابق (فكان ما فعله بعض المستشرقين السياح القدامى: التنزه في ربوع الوطن وجباله ووديانه، واستقاء المعلومات من أفواه الحكام والمسؤولين وأبواقهم، وهذا لا يكشف عن تآمر ثقافي مسبق على الحقيقة.....، بل يكشف عن كسل مريع صار (لازمة) من لوازم الصحافة الثقافية العربية للأسف. اللعنة على الاستشراق مرة أخرى لأنه لم يقدم لنا ما لم نكن حتى الآن نملك خبرة فيه. هذا العلم الذي أنتجنا على قياساته وأعاد تمثيلنا حسبما يريد.

ويعرف الأستاذ سماح إدريس بأن ادورد سعيد أكثر تشخيصاً منا لعقدة العلاقة بين الغرب والشرق، وإنتاجه ثقافة هائلة الكمية، لكنها نمطت الشرق وجعلته ممثلاً لما هو في ذهن الغرب، وشخّص سعيد قصور الإستشراق ومحدوديته بسبب تجاهل ثقافة الآخر أو شعب أو إقليم جغرافي وتحويلها إلى جوهر خالص، وتعريتها من إنسانيتها. ويعاين الإستشراق شرقاً معروضاً دائماً للغرب، وبقى ثابتاً في الزمان والمكان، من أجل الغرب، رأي سعيد هذا فيه تناظر مع رأي الأستاذ سماح حول إقليم كوردستان وما استفاض به من معلومات حول المدائح والتبجيل وحقوق الإنسان واضطهاد المرأة، كلها بقايا راسبة في الذاكرة الثقافية المتخندقة بأحضان الماضي. وسجل الاتهامات ينطوي على رغبة "صادقة" كي تكون كردستان جنة عدن وسط جغرافية يعرف تفاصيل الأنظمة فيها، والأغرب تحول "إسرائيل" إلى تهمة دامغة للكورد وبهذا أعاد وبشكل عار من الصحة وثائق النظام السابق في الاتهام بوجود علاقات بين الكورد وإسرائيل. ومع إني وغيري لا نرتضي وجود ما ذكره المقال!! ولكن لم صمت سماح إدريس عن العلاقات الدبلوماسية والتجارية والتنسيقات العالية بين أغلب الدول العربية وإسرائيل. هل يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم بسبب القومية؟

والصراعات الدموية بين الحزبين الكورديين نتيجة موضوعية بسبب التراكمات الاجتماعية والسياسية، وأفضى ما حصل بينهما إلى نوع عال من العلاقة السياسية والتفاهمات ومعطياتها الآن واضحة ومعلومة، وكنت أتمنى على الأستاذ سماح إدريس قراءة التجربة اللبنانية التي يعرف دمويتها وحجم صراعاتها، قبل الإشارة لما هو حاصل في ماضي الإقليم، وهو –كما أرى –سبب للارتقاء بالمشترك بينهما. وطفحت آراء سماح بالتعصب القومي وتكريس الجهل المؤسس –حسب مصطلح محمد اركون– وألغى تماماً دور الكورد الثقافي / والإبداعي وهو أعرف من غيره بخارطة الثقافة والأدب الكرديين في العالم، ومن غير المنطقي أن يكون الكورد شعباً رعوياً.

وسأقول كلاماً عن تجربة أخرى، غير أسبوع المدى، هي مهرجان كلاويز في السليمانية خلال تشرين الثاني، وفوجئت خلال أسبوع كامل بالتنوع الثقافي والأدبي والفكري، وأطمئن الأستاذ سماح عن مساحة الشباب غير المألوفة سابقاً وكانت الحياة الثقافية مدهشة ومثيرة لي تماماً. وجرى حوار مع الملا بختيار، الشخص الثاني بعد الرئيس جلال في قيادة الحزب حول المشترك في الثقافة العراقية والسبل من أجل تعميقها وضرورة إشراك القوميات والأقليات الأخرى في العام القادم، واتفقنا على إقامة مهرجان عام ٢٠٠٨ في بغداد إذا توفرت الشروط الموضوعية لذلك، وتوسيع حجم الدعوات للأدباء العراقيين والعرب والأجانب. ولابد من أن يعرف الجميع بأن الوضع الأمني سبب في إقامة مهرجان المدى في أربيل، وننتظر فرصة إقامته ببغداد.

وما يثير الدهشة اعتماد المقال على معلومات صحفية، نشرت لأهداف. وأتمنى على الأستاذ سماح إدريس أن يكون أكثر هدوءاً في مراقبته التجربة العراقية والكوردية. وحيث اختتم مقالته (بئس هذه الحرية التي ثمنها ٧٠٠ ألف ضحية بريئة خلال أربع سنوات، وتقسيم الشعب والوطن العراقيين وتغلغل المواساد. وتزايد جرائم الشرف، وتدهور حقوق الإنسان وحرية التعبير داخل القسم (المحرر) نفسه).

أقول له باعتباري واحداً من المثقفين العراقيين وبصوت عال، بأن فضاء حريتنا جديد ومن أجله سنقدم كثيراً من القرابين وتجارب أوروبا في التحرك نحو الديمقراطية ضاجة بملايين وملايين، وأصحح له أرقام ال